

نظرة في حاضر الاسلام

بقلم الاب لامنر البوعبي

٢

وهما يكن من أسر فان عدد المسلمين يظهر على ازدياد متواصل ، وقد قدرهم الاستاذ ماسينيون في آخر السنة الفاتية ، بـ ٢٤٦ مليوناً^(١) . ولما لم يكن من احصاء دقيق في اكثر البلاد الاسلامية ، فاننا نرى هذا التقدير ادق ما صنع من نوعه ، واجدره بالاقتراب من الحقيقة . على ان الاستاذ ماسينيون نفسه يُقر^(٢) بان احصائيات الحكومة الوهاية « زيدت بمعدل مائتين في المائة » (كذا !) ولكن هذا لم يمنعه قبولها في مجموعته عن اهل العالم الاسلامي ، وعن سكان جزيرة العرب . وكان التقييم نفسه قد ذكر ، في السنة ١٩٢٦ ، مجموعاً لعدد المسلمين يبلغ ٢٢٧ مليوناً . فما هي اسباب هذه الزيادة المبهمة ، اي زيادة عشرين مليوناً في اربع سنوات ؟

من اسبابها الاولى زيادة المواليد . وهنا يجدر بنا الانتباه الى امر اشرنا اليه سابقاً^(٣) وهو ان المسلمين ، ما عدا نحو ٣٥ مليوناً منهم ، يعيشون جميعهم في بلدان خاضعة لسلطة الدول الغربية إما مباشرة او عن طريق الحماية او المراقبة او الانتداب . وقد ظهر ان المقاطعات الاسلامية المتقلة يظل عدد سكانها على ما هو ، ان لم يتناقص شيئاً فشيئاً ، بسبب الحروب الاهلية ، وتكاثر وفيات الاطفال ، وغير ذلك من الاربطة المجتاحة . هذه بلاد الجزائر التي لم يكن يتجاوز سكانها المليون سنة ١٨٣٠ ، زاهها اليوم ، بعد مئة سنة مرت على الحكم الاوربي فيها ، وقد زاد عدد اهليها حتى بلغ خمسة اضعافه . ويمكننا القول نفسه عن جزيرة جاوى ، من املاك هولندا ، فان سكانها كانوا يبلغون ، سنة ١٨١٢ ، من اربعة الى خمسة ملايين . فلم يرض عليها مائة سنة ، حتى بلغوا سبعة اضعاف ما كانوا عليه ، فتجاوزوا الثلاثين

(١) *L'annuaire du monde musulman, 3^e édition, Paris, 1930, Leroux.*

(٢) الكتاب المذكور ، في حاشية الصفحة ١٠٥

(٣) راجع كتابنا *Islam, croyances et institutions, p. 241.*

مليوناً . فاذا قابلنا حالة هذين القطرين بحالة بلاد الافغان المستقلة ، وما يقبل سكانها من مصائب الحروب الاهلية ، والمجاعات ، والابوثة ، تحمقنا فضل الادارة القريبة ، وعملها في تحيين معيشة المسلمين وزيادة عددهم .

وسبب ثانٍ في زيادة عدد المسلمين ينتج عن ان هولاء يقومون بنشر الدعاية لدينهم ، فيستيلون بعض جيرانهم من الزنوج في افريقية ، ومن ابنا اللقوف السفلى في الهند . وقد دفعت الرغبة في نشر الدعاية الاسلامية بعض ذوي الاقدام منهم الى تأسيس مدارس خاصة يُرَبَّى فيها المرسلون . فرتبوا فيها صفوف اللاهوت والآداب ، وطرق التمارين الجدلوية يتمرن فيها المرسلون على المناظرات الدينية . وأثنى فيها مجلات خاصة بنشر الدعاية . واشهر هذه المدارس مدرسة الشيعيين في لكهنؤ بالهند ، ومدارس الاحمدية في قاديان ولاهور ، بالهند ايضاً . اما في مصر فان مدرسة « دار الدعوة » التي أنشئت سنة ١٩١٣ في جزيرة الروضة (القاهرة) لم تعش سنتين . هذا واننا نفتقر الى معلومات واحصائيات دقيقة عن اعمال الارشاليات الاسلامية ، وعدد ما يكتبونه بغيرتهم من المسلمين الجدد . ولا يكفي في ذلك افتخار الاحمدية ، ولا مناداتهم بالنظر والظفر ، ولا احتفالاتهم في جامهم في برلين او قرب لندرة ، كلما دان احد افراد الانكليز او الالمان بالدين الاسلامي .

اما التعليم القرآني فاننا زاه في تأخر مستمر ومطرد حتى في البلاد الاسلامية المستقلة . واجلي مظهر لذلك تطوّر التعليم الرسمي ، ولا سيما في المعاهد العالية والثتوية ، فهو يتجرد شيئاً فشيئاً من تأثير الدين حتى يُصبح لادنياً محضاً كما هي الحالة في توكية . وقد مدد دعاة التطور المصري اصابعهم حتى داخل الجامع الأزهر ، فاعتشروا حاجته الى الاصلاح ، وتدخّلوا في ادارة الدروس وتمديد البرامج التي حوّرت مرّات دون نتيجة تُذكر حتى غدا تأثير ذلك المعقل الملمبي على شفير هار ، ففقد في عشرين سنة ، ثلاثة اقسام طلابه . وهكذا القول عن مدرسة «الزيتونة» ، وهي اعلى مدرسة دينية في تونس . واذا اخفنا الى ذلك الروح المصري السائد في الجامعة المصرية الجديدة ، والمستمد مبادئه من التقدير الغربي ، وفهمنا انه ابعد من ان يثبت الشيبة الاسلامية في

مبادئها الدينية وعقائدها ، ادركنا الصدمة القوية التي يعانيها اليوم الاسلام التقليدي . واننا نذكر ، هذه النسبة ، القلق الذي أحدثته ، لسنوات قليلة ، مؤلفات الاستاذ طه حسين المليية ، وهو من خويجي الازهر القداما ، ومن اساتذة الجامعة المصرية الحاليين .

وحتى ايماننا هذه ، كان السنيون يتفقون جميعهم على تفسير القرآن . على ان السلفية ، وهم الاصلاحيون المحافظون الذين اشرنا اليهم سابقاً ، اخذوا يضعفون هذا الاجماع بكثرة ما يدخلونه من آراء جديدة في التفسير والتأويل ، قصد ان يطبقوا القرآن على ذوق العصر والافكار المعاصرة . فمخالفوا جميع الائمة القداما . بزاعم غريبة عن روح التقليد ، منها ان القرآن يُشير بوحدة الزواج (٤:٣) ، ومنها انهم يرون نسخ الآية ٢٣٠ من السورة الثانية . هذا فضلاً عن الميل الظاهر في اكثر النحاء العالم الاسلامي للتخايس من المحرمات القرآنية الشديدة في ما يختص فائدة المال ، وآراء الائمة الاقدمين في الإدانة والربا . فانشئت مصارف كثيرة برووس اموال وادارات اسلامية خالصة ليس في توكية فحسب ، بل في مصر ، وباري ، والهند ، وغيرها من الاقطار الاسلامية . وتقوم هذه المصارف بجميع اعمال البنوك المعروفة من استقبال المال واذاثته بالفوائد المقررة ، كما انها توزع ارباحها على مساهمها كالمصارف غير الاسلامية . وكذلك يشترك كثير من المسلمين بشركات التأمين على انواعها المختلفة . وكلها اعمال مخالفة للشريعة والقرآن .

وفي العالم الاسلامي اليوم حركة نسوية قوية ترمي الى تزوع الحجاب ، واعتاق النساء ، وتحتج على استئثار الرجل وحده بحق الطلاق ، وعلى انتقاص حق المرأة بالارث والشهادة . على ان هذه الحركة المتقدمة تقدماً عظيماً في توكية ، لا تزال تلاقي العقبات والماكسات في بلاد العرب ، وسورية ، والعراق ، والجزائر ، ولاسيا مراكش . اما في مصر فقد ابتدأت الدعاية النسوية على يد المرحوم قاسم امين ، سنة ١٨٩٦ ، وسارت شوطاً بعيداً منذئذ . ومديرتها اليوم السيدة هدى شمراوي باشا . وقد شابت دمشق ان تجاري مصر في هذا المضمار فمقد ناسوها مؤتمراً في الجيف الماضي ، واحتججن كلهن على الحجاب

وليس الخنار احتجاجات شديدة ، ولكن لم يكن منهن من تجرأت فرفقت زاوية من تخارها . ومها يكن من أمر ، فإن الفكرة قد بُثت ، وبُذيت بحركة يوئل اصحابها انها ستتد في المستقبل القريب . وقد حدثنا قرأنا سابقاً (المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٢٦٦) عن تأليف الأنة نظيرة زين الدين في هذا الموضوع .

* * *

لقد اكتفينا ، في ما تقدم ، بمرض حالة الاسلام الحاضرة ، على طريقة وضية بجة تجنبت فيها كل ما يُشتم منه رغبة في المناظرة او ميل الى الجدال . وهي نظرة تظهر كيف يجتهد الاسلام بالسير مع الرقي المصري واتباع الافكار المصرية ، وتظهر خصوصاً تأثير هذه الافكار في الاوساط الاسلامية ، ولا سيما في الشبية المتعلمة . وعلى الجيلة نرى ان الاسلام واقف بازاء معضلة همة دقيقة .

فاذا استثنينا بعض المحافظين القداماء ، امكنا القول ان جميع المسلمين يشعرون بضرورة الاصلاح ، وبال حاجة الى الاتفاق مع الرقي المصري . وهو امر تملق به حياتهم او موتهم . فقد طالما عاش الاسلام حياة العزلة والانفراد . اما اليوم فلا يمكنه الاستمرار على تلك العزلة ، ولا البقاء بعيداً عن الحركة العامة التي تدفع بالمجتمعات الى مجال الحياة المشتركة فتجددها . يجب عليه ان يسير مع التيار المصري ، والألا كان عرضة للصدمة فالسقوط . هذا ما تحمته الاثراك ، بعد ان اهابت بهم روح الوطنية ، فهبوا يتخذون المؤسسات الغربية بكاملها قصد ان يجاروا اوروبا بصلاحها نفسه ، فيمنوها عن مزاحمتهم في عقر دارهم . اما باقي المسلمين ، وهم لا يقلون وطنية عن الاثراك ، فانهم يهتنون ، قبل كل شيء ، بتأمين معتقداتهم . ولهذا فهم يودون ان يجتاروا من المؤسسات الاوربية ما يوافق القرآن ويحفظ روحه سالمة .

فهل ينجحون في هذا الاختيار ؟ وهل يتمكنون ، قبل فوات الحين ، من تلافي التأثير السي . المفد الذي توثره المبادئ المصرية في الشبية الاسلامية ؟ ان المعضلة كلها في هذه النقطة ، وسيرينا المستقبل كيف يتوفق قادة الافكار الاسلامية الى حلها .